حرية الرأي والتعبير: المثقف قامعاً ومقموعاً

(٢-١)

د. محمد حاكم / القاهرة

حرابات قديمة وفاعلون جدد:

ربما يكون تصور ان لحرية التعبير مساراً خطياً وانتشارياً ومن ثم تقدمياً طوال ما يزيد عن القرنين الاخيرين، ابعد التصورات دقة من زاوية الرصد التاريخي الدقيق؛ وينطبق الامر ذاته على الديمقراطية، التي كان يسميها كارل ماركس ومن بعده كثيرون ديكتاتورية البرجوازية- الطبقة الحاكمة، كما ينطبق ايضاً على الليبرالية التي كان يسميها ايضاً ايديولوجية البرجوازية- الطبقة الحاكمة في الاخضاع الذهني والنفسي للمقهورين؛ وربما كانت مفاهيم مثل البرجوازية او الطبقة او الايديولوجية او اسماء مثل كارل ماركس خادشة للحياء العام السائد في الاوساط الثقافية اليوم ولكنها تبدو ضرورية للتأكيد على ان حرية التعبير مسألة كانت دائماً مطروحة للبحث وان طرقاً اخرى لمعالجتها قد وجدت ذات يوم ون الامانة العلمية وربما اداب المهنة فضلاً عن معايير الكفاءة المهنية ايضاً تقتضي عدم استبعادها. وللتذكير فقط فإن قائمة اكثر فجاجة تتصدرها حربان عالميتان وظواهر لا تقل شذوذاً ومفارقة مثل النازية والفاشية والمكارثية وقمع ثورات طلاب العالم في ١٩٦٨ قد وقعت في الدول الديمقراطية والليبرالية ذاتها، اذا ما تغاضينا عن كل التاريخ الاستعماري الحديث جداً لهذه الدول ضد أغلبية العالم والحرب الباردة التي لا تقل من حيث نتائجها الكارثية على حرية التعبير عن الحربين العالميتين؛ وللتذكير أيضاً، والذكرى تنفع المؤمنين وربما المتشككين أكثر، فإن قائمة أقل فجاجة تتصدرها كل المنتجات الفكرية عن الاستلاب السلعي والاغتراب والإنسان ذي البعد الواحد والعنف الرمزي ومجتمع الاستعراض والمتلاعبين بالعقول والمجتمع الاستهلاكي؛ وهما للعلم قائمتان بالعينة الانتقائية وأبعد ما يكونان عن مسح شامل، ولا يمكن اعتبارهما مجرد شذوذ استثنائي لمسار مستقيم كان قادراً على توفيق أوضاعة عند كل منحنى.

وبرغم كل هذه الجرائم في حق الإنسانية فقد صارت حرية الرأي والتعبير شعاراً سياسياً غالباً، وصارت قاعدة قانونية صريحة في معظم الدساتير والنظم القانونية، وحقاً إنسانياً وموثقاً في إعلانات ومعاهدات حظيت بتصديق غالبية دول العالم وصارت بالتالي جزءاً من بنائها القانوني المحلي. ولكن يبدو أن هناك مفارقة صارخة بين هذا الواقع المعياري لحرية التعبير وبين الواقع الفعلي للممارسات الاجتماعية - السياسية والثقافية على وجه الخصوص - على صعيدي المجتمع والدولة على السواء؛ ويبدو أن هذه المفارقة يمكن أن تقدم لنا تفسيراً أولياً وبديهياً في الأقل لكل هذا الرواج الخطابي دعوى لحرية التعبير:

- فالمجموعات السياسية الثورية القديمة التي ما زالت تناضل من أجل البقاء ضمن إطار المجتمع السياسي أعادت ترتيب أولوياتها، في الأقل، فعوضاً عن أولوية تغير العالم حسب النماذج القومية لعقدي الخمسينيات والستينيات أو حسب النماذج الاشتراكية الستالينية وحتى الماوية من خلال تنظيم سياسي تقوده طليعة من المثقفين الثوريين أو حتى من ضباط الجيش، أصبحت الأولوية الراهنة هي الدعوة والتبشير لقيم حرية التعبير والديمقراطية وحتى الليبرالية السوقية.

- أما المجموعات السياسية القديمة أيضاً التي لم تحتمل جحيم المجتمع السياسي أو التي اكتشفت أن طرقها في التفكير والعمل لن تفضي إلى تغيير العالم في المدى المنظور في الأقل فقد لاذت بالهروب إلى المنازل صمتاً وإحباطاً وحسرة على فشل تغيير للعالم كان يبدو ضرورياً وممكنا، أو حتى احتجاجاً صامتاً على التغيير الجاري للعالم نحو ضفاف أخرى أقل حرية وعدلاً وجمالاً، واختارت أن تكتفي بالفرجة المأساوية حفاظاً على بقاء أياديها نظيفة وارتضت لنفسها مجرد إتقان دورها المهني حسب تقسيم اجتماعي قسري للعمل، أو أنها على العكس من ذلك لاذت بالفرار إلى نعيم منظمات وهيئات المجتمع المدني متصورة أنه ميدان آخر لمعركة تغيير العالم، إن لم يكن ميدان المعركة الحقيقي والحقيقية؛ وفي كل الأحوال فقد وجدت بعض ضالتها فيه؛ فعوضاً عن أولوية تغيير العالم أمست الأولوية دفاعاً بالتجزئة والقطاعي عن حرية التعبير وعن الديمقراطية والليبرالية السوقية أيضاً، وعوضاً عن تسييس المجتمع المدني لتوسيع نطاق مشاركة سياسية واعية كما كان يدعو جرامشي تحددت المهمة: مدينة المجتمع السياسي أو بالأدق نزع صفته السياسية كما يمكن أن يدعو أي لورد محترم في أي شركة متعددة للقوميات؛ ومثلها مثل المجموعة الأولى ظلت أسيرة للشعور بالذنب الناتج عن الخطيئة الأولى: فشل المشروع القومي والاشتراكي اللذين استوليا ذات يوم غير بعيد على كل مساحة الخيالات والأحلام الممكنة، ومثلها أيضاً وجدت في دورها العام في الدفاع الإعلامي عن حرية التعبير والديمقراطية والليبرالية إرضاءً ذاتياً لضميرها السياسي المذبوح، ولكنها اختلفت عنها في الحصول على منافع مالية مغرية وظهور إعلامي كثيف وحتى علاقات إنسجاما مع أجهزة الدولة ومع منظمات مانحة ومناضلة على الطراز المدني تتوزع على خريطة العالم.

- أما مجموعات المثقفين العلمانيين الذين لم يكن مشهوداً لهم بحضور فعال داخل المجتمع السياسي فقد هالها نجاح جماعات الإسلام السياسي في تسييد رؤيتها الدينية للعالم على صعيد المجتمع وأحياناً على صعيد الدول أيضاً سواء كانت هذه الجماعات مسلحة أو كانت قد ألقت السلاح منذ أوائل السبعينيات كما هي حالة الإخوان المسلمين؛ ومع تطور الأمور ابتداءً من اغتيال الرئيس السادات ودخول الدولة في حرابات عسكرية حقيقية حتى ولو كانت محدودة العدد ومتقطعة مع هذه الجماعات المسلحة، توافقت مصلحة هذه المجموعات العلمانية - دفاعاً عن حريتها في إبداء آرائها وفي التعبير عنها - مع رغبة الدولة في قطع العلاقة بين الثقافة الدينية التي تم تسييدها اجتماعياً وبين الحرابات العسكرية الجارية مع الجماعات الإسلامية؛ وبدأت جماعات المثقفين في فضح نقاط الضعف في الاجتهاد الإسلامي الراهن وعلى رأسها حرية الرأي والتعبير والديمقراطية والمواطنة؛ وربما راهن بعض من هؤلاء المثقفين على مساعدة الدولة في مصر في حسم هويتها المزدوجة لمصلحة الهوية المدنية أو العلمانية أو الدنيوية في مقابل الهوية الدينية التي تطل برأسها صراحة من آن لآخر. وفي هذا الإطار تحول كثير من المثقفين العلمانيين إلى مجرد خبراء يبحثون عن إجابات للأسئلة المطروحة والمسموح بطرحها من قبل الدولة ويقدمون الوصفات العلاجية لأزماتها المزمنة، عوضاً عن دورهم التقليدي في إثارة الأسئلة المسكوت عنها في مواجهة الدولة والمجتمع وإثارة الشكوك حول الحلول الجزئية التي تفاقم الأزمات بدلاً من إنهائها.

- أما المجموعات الدينية فقد نشطت هي الأخرى سواء داخل أجهزة الدولة أم خارجها، فأغرقت السوق الثقافي بالحديث عن حرية التعبير في الإسلام وعن الديمقراطية في الإسلام وعن حقوق الإنسان في الإسلام وعن حقوق المرأة في الإسلام وعن وعن وعن. وربما كان ذلك استجابة للتحدي العلماني المحلي والعالمي الذي نجح في فرض ضرورة التعاطي مع هذه الموضوعات كشرط للحضور الإيجابي داخل المجال الثقافي العام، وربما كان ذلك ضمن سياق مراجعة فقهية وشرعية ناتجة عن خيبة الأمل في نتائج مشروع التغيير بالسلاح الذي كانت هذه الجماعات قد اعتمدته سابقاً، وربما كان نتيجة للمصالحة مع أجهزة الدولة الأمنية بفعل تغير في موازين القوى حدث في النصف الثاني من التسعينيات، وربما كان رداً على الدعاوى الدولية العدائية تجاه الإسلام والمسلمين واستجابة لضرورة تحسين صورة الإسلام والمسلمين خاصة بعد أحداث الحادي عشر من ايلول.

- أما الدولة فلم تفتها المشاركة في الترويج الخطابي لحرية التعبير وسارعت وعلى أعلى مستوى إلى تقديم وعد رئاسي بإلغاء عقوبة حبس الصحفيين في جرائم النشر في فبراير الماضي حتى ولو لم يترجم الوعد حتى هذه اللحظة إلى تشريع، وإصدار قرار رئاسي أيضاً بإنشاء مؤسسات حكومية جديدة من بين اختصاصاتها الدفاع عن حرية التعبير مثل المجلس القومي لحقوق الإنسان. فضلاً عن مؤسسات ومشروعات أخرى.

- أما المنظمات الدولية والعالمية التي تبنت وأنتجت معظم هذا الخطاب الجاري عن حرية التعبير وقدمت كل الدعم المعنوي والمالي للحكومات ولمنظمات المجتمع المدني خاصة فقد ظلت محبوسة - بفعل شلل فاعليتها السياسية - داخل لغة دبلوماسية وحقوقية مهذبة تأخذ شكل دعوات وإعلانات ومبادئ ومواثيق تليق بالاتفاق حولها من قبل دول ذات سيادات قومية، وابعد ما تكون عن تأسيس حقل نظري لحرية التعبير يحدد بنية الصراعات والفاعلين وبالتالي ينتج مفاهيم بديلة قادرة على تحليل وتغيير الواقع بدل الدعوة إلى ترشيده وإصلاحه على غرار النموذج السائد الذي لم يمنع أياً من جرائم النازية والفاشية والمكارثية السابقة الإشارة إليها.

- أما الولايات المتحدة الأمريكية الموكول لها بفعل موازين القوى الراهنة قيادة العالم فقد فاجأتها أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١، واعتبرتها نتيجة لنيران صديقة: فأغلب الذين خططوا ونفذوا الأحداث وأغلب الذين أيدوها كانوا من منظمات كانت ذات يوم صديقة للولايات المتحدة، وينتمون إلى دول كانت وما زالت تربطها بها علاقات فوق العادة وتتلقى منها أشكالاً كثيرة - غير قابلة للرصد في حدود المعلومات المتاحة - من الدعم المنظور وغير المنظور، وبالتالي فقد أصبح الأصدقاء فجأة خطراً على أمن الولايات المتحدة والمطلوب إذن ليس أكثر من تصحيح المسار؛ والكيفية التي توصلت إليها أفضل العقول الأمريكية ليست أكثر من إصلاح هذه الدول التي أدى غياب الديمقراطية فيها إلى إنتاج نوع من الإرهاب والإرهابيين ضد الولايات المتحدة ذاتها التي ساندت طويلاً هذه الأنظمة التي أصبحت تراها الآن والآن فقط غير ديمقراطية. وكانت الحصيلة عدداً من المبادرات الأمريكية للإصلاح الديمقراطي للدول الصديقة في الشرق الأوسط الإسلامي وعلى رأسها أيضاً الإقرار بحرية الرأي والتعبير:

❖"مبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط التي طرحها كولن باول في خطاب ألقاه في مؤسسة التراث بواشنطن في كانون الأول ٢٠٠٢ مصحوبة بوعود مالية وصلت في السنة الأولى فقط إلى ٢٩ مليار دولار أمريكي قابلة للزيادة في الأعوام المقبلة.

❖مشروع "الشرق الأوسط الكبير" الذي طرحته الولايات المتحدة على مجموعة الدول الصناعية الثماني، في يونيو الماضي. والذي سبق وطرحته أيضاً على دول الناتو.

❖خطة الإصلاح لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، والتي انتهى إليها قادة دول مجموعة الثماني خلال انعقاد قمتهم في يونيو الماضي والتي كانت توفيقاً بين المبادرة الأمريكية وبين المبادرة الفرنسية الألمانية للإصلاح في الشرق الأوسط والتي سبق طرحها في فبراير الماضي.

وتجدر الإشارة إلى أن كل هذا المبادرات والخطط جاءت مصحوبة بكثير من الغنائم ومن التهديدات العلنية أحياناً من دول قادرة على تنفيذ ما تريد.

(مواء).. سحرية واقعية لا واقعية سحرية

طه حامد الشبيب

قرأت في المدى الثقافي جريدة (المدى) الغراء مقالاً وقع في عددين ٢٠٧ و ٢٠٨ بعنوان (محاكاة واقعية ماركيز السحرية في ثلاث روايات عربية). وهذه الروايات كما وردت في المقال هي: رحلة باستنتاج مفاده أن هذه الروايات تحاكي أعمال ماركيز وتحديداً روايته (خريف البطريرك).

ولأني لم أقرأ (رحلة غاندي الصغير) ولا (سيد العتمة) فأني سأركز في تعقيبي هذا على ما جاء في المقال حول روايتي (مواء) بدءاً لابد من حسم حقيقة هي ان الواقعية السحرية لم يبتدعها ماركيز فقد سبقه إليها كتاب آخرون من امريكا اللاتينية في بداية القرن العشرين، أي قبل ان يكتب (مائة عام من العزلة) و(خريف البطريرك) بما يقارب الخمسين عاماً. وقد سبقهم جميعاً إليها كتاب الشرق منذ زمن (ألف ليلة وليلة) أي ان المحاكاة لو كانت حدثت فعلاً فانها محاكاة لمبتدع الواقعية السحرية الأول.. أعني لجداتنا، أو في الأقل لمن اتخذها نهجاً في الكتابة لأول مرة في امريكا اللاتينية وليس محاكاة لماركيز. وثمة شيء آخر أود ان الفت انتباه القارئ الكريم إليه هو ان ذوبان الحدود الفاصلة بين الضمائر وانتقال الراوي من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم وبالعكس.. ذاك الذي عده المقال المذكور فتحاً لماركيز في روايته (خريف البطريرك) هو أسلوب ورد في القرآن الكريم قبل أكثر من ألف واربعمائة عام حيث نجد في الآية الواحدة تعدد أصوات لا تفصلها فواصل مندغمة ببعضها يتم الانتقال في ما بينها بانسيابية ورشاقة، فهناك صوت الآله وصوت الرسول وصوت العبد وكلها ترد في آية واحدة قد لا تتجاوز بضع كلمات.. وحتى لا أتجنى على ماركيز أقول ان الرجل لم يدع هذا الأسلوب لنفسه.. من ألصقه به ومن تبرع به إليه هم الآخرون، فلم يعترض!!. إذن هذه حقيقة أخرى يجب حسمها أيضاً.

والآن لاتحدث عن رواية (مواء). مواء روايتي السابعة قبلها ست وكلها كتبتها، باستثناء (انه الجراد)، ضمن نهج كتابي اطلقت عليه السحرية الواقعية لا الواقعية السحرية. أي ان هذا النهج يعاكس تماماً بالشكل وبالوظيفة نهج الواقعية السحرية. كيف؟ الواقعية السحرية أو واقعية ماركيز السحرية، كما يحلو للمقال المذكور ان يسميها، تتناول ثيمة واقعية تجري عجبنتها اثناء القص. بمعنى ان القص يسير سيراً هادئاً لا ينطوي على مشاهد خارجة على الواقع المألوف ثم فجأة ينبجس من نسيج السرد مشهد غرائبي يكسر الوتيرة الواقعية وهكذا تتكرر هذه الانبجاسات على نحو متناثر كما الألغام.. بيد أن الثيمة تبقى واقعية الى آخر مطاف النص. وغالباً، إن لم يكن دائما تأتي هذه المشاهد الغرائبية ساخرة فكأن الكاتب يقصد بها تسفيه الواقع. أي أنه يعمد إلى تحويل الواقع إلى نكتة.. ولن يشفع له ان النكتة في بعض الأحيان تكون نكتة سوداء، ذلك أنه على هذا المنوال إنما ينسج ستراتيجية دفع القارئ إلى السخرية من واقعه بما فيه نماذج القبح الإنساني التي يعج بها. أي ان الكاتب يدفع قارئه إلى سكب الماء على أي نار تغيير تتأجج داخله، والكاتب بهذا يحيل (واقعيته السحرية) وظائفياً إلى شيء أشبه بمسرح امتصاص النقمة ذاك الذي تلجأ إليه الأنظمة القمعية في امتصاص نقمة شعوبها. على هذا فالواقعية السحرية نهج غير مناسب للكتابة في بلدان ترزح تحت نير مثل هذه الأنظمة.. وعلى هذا أيضاً فأنا اقتاطع كل التقاطع مع الواقعية السحرية في الأقل أبان العقود الثلاثة الماضية التي مرت على العراق.

أما في السحرية الواقعية، النهج الكتابي الذي أزعمه، فالجأ إلى معالجة (ثيمة) غير مألوفة لا يمكن عدها ثيمة واقعية لابتعادها اكثيراً عما هو يوحي، ثم يصار إلى وقعنتها مع مضي القص بما أضيف إليها من ملامح يومية. فكرية وسلوكية ونفسية واكسسوارية تتعلق بالطعام والشراب والزي وتضاريس المكان.. الخ. وقد يكون من المجدي، لغرض توضيح الفكرة، ان استفيض قليلاً في ما أقوم به اثناء فعل الكتابة. حسناً.. ما أقوم به فعلاً على وفق هذا النهج هو أني أصمم ما يشبه اللعبة.. لعبة تناظر، بجميع موجوداتها، الواقع المعاش لكنها ليست من الواقع بشيء. أنها أقرب ما تكون إلى لعبة (بيت ابو بيوت) المعروفة لدى اطفالنا، حيث يرصف الأطفال الطابوق، أو كسرات الطابوق بالأحرى، يحدد الجدران الخارجية للبيت ثم يحددون داخل هذا التشكيل جدران الغرف والمطبخ والحمام ثم يسدرون في تخيل الحياة التي يعيشها الكبار في البيوت الحقيقية. السحرية الواقعية تتقمص هذا النموذج. كل شيء فيه غير واقعي، غير مألوف، غير يومي لكنه يغدو نموذجاً الواقع لامراء فيه عندما يبدأ اللاعبون (شخوص الرواية) بالتفكير وبالسلوك وبالتعبير عما يختلج في نفوسهم. ويمضي الاطراد بتحويل ما هو غير مألوف إلى مألوف يوحي حتى يغلق القارئ الغلافين على الكتاب.. عند ذاك يكون هذا بإزاء بيت حقيقي وليس (بيت ابو بيوت) كما بدا له.

هذا النهج كما هو واضح يختلف كلياً بشكله وبسياق فعله عن نهج الواقعية السحرية، وسيختلف وظائفياً أيضاً. هذا النهج، السحرية الواقعية، حيث يستحيل فيه السحري إلى واقعي، يصلح صلاحية تامة كاسلوب للكتابة في ظروف القمع.. قمع الدولة أعني. إذ يتسنى للكاتب أن ينقل محمولة الفكري إلى القارئ وهو متدرع (بعجيبه) أو (غير مألوفه).

ان الكاتب لا ينقل محموله الفكري وحسب وإنما يؤجج، على وفق هذا النهج الكتابي، نار التغيير في صدر قارئه لا ان يسكب الماء عليها مثلما تفعل الواقعية السحرية بمشاهد السخرية المفتعلة التي تقحمها على القارئ اقحاماً. على ان النجاح في تقديم نص من نصوص السحرية الواقعية يتطلب توفر الكاتب على مزايا فنية خاصة لا مجال للحديث عنها في هذا المقام، فمهمة كتابة مثل نص كهذا اصعب بكثير من كتابته على وفق (واقعية ماركيز السحرية).

ولأتحدث الآن عن رواية (مواء) لإجلاء الالتباس الذي وقع فيه المقال المذكور أعلاه. مواء لا تتحدث عن (ميتات زائفة) تلك التي تتحدث عنها (خريف البطريرك) أبطال (مواء) قطة ورجل منسحق تحت وطأة شعوره بالذنب لأنه اذعن، ردحاً من الزمن، لمفهوم الفحولة المستثمر سياساً والذي ذهب ضحيته أولاده الثلاثة. انه يعاني من مأزق وجودي واشكالية تتمحور حول ثنائية الذكر/الانثى. كان ثمة سؤال كبير في ذهنه وجد له جواباً عند قطة بيضاء لاذت ببيته لتضع حملها؛ وعندما عثر على الجواب وجد نفسه، في غمرة انسحاقه، ينتمي إلى القطة (الانثى) التي كانت تلوب متنقلة بصغارها من موضع لآخر داخل بيته حامية إياهم من أبيهم القط، الذي سيأكلهم واحداً بعد الآخر على الرغم من جهودها. ولا أمضي أكثر في الحديث عن الرواية لئلا افسد على القارئ متعة الاكتشاف والتأويل.

على اني ينبغي لي ان أمر على الملاحظات الواردة في المقال المذكور.

فالتهويمات الذهنية التي يعاني منها البطل (الرجل) أمر طبيعي يتماشى مع حالته النفسية، ولا علاقة لهذا بماركيز أو بغيره. بطلي في روايتي (مأتم) يعاني من تهويمات ذهنية وبطلي في (طين حري) يعاني كذلك من نفس المشكلة.. انهما منسحقان انسانياً فماذا تنتظر منهم؟!

ثم هل ان استخدام ماركيز جملة (انه أمر الرب) يحجب عن بطلي الحق في أن يقول لزوجته (مريم العني الشيطان الأمر امر الله) حتى لا يحاكي ماركيز؟!.. انه لأمر مفجع حقاً للنقد قبل أي شيء آخر. وتبقى الفجيعة النقدية تلقي بظلالها علينا عندما يقارن المقال بين جملة ماركيز: (يحس البطريرك بنفسه تحت رحمة قدر لا مفر منه بيت موحش) وجملتي: البيت لن يؤهل ابداً.

اما (النط) عند بطل، ماركيز فقد استخدم الكاتب هذه الكلمة كناية لحركة بطله الدائبة بعد ان كان كسيحاً. في (مواء) البطل يتخذ فعلاً هيئة الوقوف على أربع، وهذا يتطلب من القارئ الكريم قراءة الرواية ليعرف كيف انتهى البطل إلى هذه الحال.

ترد كلمة (فحل) في (خريف البطريرك) عرضاً في مشهد صغير أما في (مواء) (فالفحولة) مقابل (الرجولة) هي الموضوعة المركزية للرواية. ولا تتوقف الاشكالات التي واجهها المقال المذكور عند هذا الحد، فقد قارن بين تصرف جنرال ماركيز في بيته كرجل يتناقض وتصرفه في المستنقع الكبير وبين تصرف بطل مواء كرجل في بيته قبل ان تهجره زوجته وابنته وتصرفه بعد ذاك عندما وجد نفسه شريكاً للقطة. حقاً لا أدري ماذا أقول!! على أية حال انا سعيد كل السعادة بالمقال لأنه فسح لي المجال ان اسلط بعض الضوء على (السحرية الواقعية).

كتاب النداف

طالب عبد العزيز

يأتي النداف بقيثارته الكبيرة وخروجه المقطنة التي في عرواتها الخيوط الملونة وعيدان الحلفاء وأوراق صفصاف خضر وزهور بنفسجية وأشياء أخرى علقت بها عبر تجواله في القرى والأديرة يحملها على كتفه أو يعلقها صبي له أرهقه حملها فيما يضع العصي بخرج من الخوض خلف ظهره، كنانة السهام أو خرج العيدان كما يسمى، كيوبيد مسربل يطوف الأماكن القصية ينادي بجملته (نداف نداف أجعل الليل أعراساً اجعل الدنيا أسعد اجمل).. رجل في الاربعين من أصل فارسي أو رومي بأصابع نحاسية تصنع من القماش الموسلين الأزرق والأبيض، النيلي والبرتقالي المحمر والوردي المقدف وقيثارة كهلة وعصي خيزران نحيلة. أعراساً وهلاهل وأحلاماً لا حدود لها.

كان أبي يستقدمه في منزل (الخطار) ليس بعيداً عن البيت الكبير لكنه من القصب والحجارة والشمس، يفصله عن (سوباط) التمر صف طويل من آس مقصوص على شكل أرز ثلجي وشجيرات غرب كثيفة محشوة بعصافير لا تطير بعيداً، وبلابل وجنادب نائمة وتفرقه شجرة توت عملاقة تحجب الشمس طوال النهار عن باحة المنزل وغرفاته ومسناته الصغيرة يمكث لدينا أسبوعاً أو اسبوعين يصنع من لحفنا ووسائدنا وإسرتنا الواطئة المبقعة بالبول لحفاً ووسائد ومنامات أثيرة وناعسة، ولا يبخل بأن يوشيها بكلمات من ألف ليلة وليلة، ويرسم عليها شهرزادات حزينات وجميلات وغابات نائية بخط يشبه أعناق طيور وأقدام لقالق ومناقير سنونوات، كلمات فارسة أو كوفية لغات لا يعرفها أحد ربما هو فقط، لا تخلو من أخطاء لكنها ناعمة ورقيقة وتذكر بالسهر والحرمان والهمس والأحلام.

كنت أنا من أوكل له بجلب الماء والطعام والشاي ونقيع الزبيب ولطالما اشركني في مسرته تلك فكنت ألضم له الخيط أحياناً أو أحصي له الأزرار، أو ألقم القيثارة الكبيرة بالقطن وكثيراً ما كنت ارى وقد علا راسي برد أبيض أو أني أفرح معه فاصنعه على شكل شاربين ولحية بيضاء لا تخلو من وقار وفي أخريات أيامه كنت أصغي لقيثارته وهي تحيل حبات القطن عبر الوتر الحزين والعصا الخيزران إلى هضبة وفر بيضاء تغطي الباحة الباردة.

كنت أرى كيف تتقافز حبات القطن كعصافير حب فرحة اية أنغام كان هذا الأعجمي الغريب يبعث بها عبر عصر من الترحال والأسى أية ليال باكية كانت ترزح تحت وسادته تحت عصا صبره وغربته.ولما كانت الوسائد والمنامات تملأ بيت الخطار ببلابلها وأزهارها وقد عتقت تحت أيد كثيرة أو امتدت إليها يد الدهر الطويلة كنت أرى أصابع النداف واسمع قيثارته تتردد عبر الليالي الباردة والثعالب التي تنبحها الكلاب كل ليلة خلف غابتنا السوداء النائية عبر ثغاء الخراف وشحوب الأقمار كنت كثيراً أتحسس يده وهي تسلمني قارورة الزبيب الفارغة مرة رأيت نحلة تغرق في عسلها فتعلمت درساً في السعادة والحزن. لا تزال رائحة الأرض في إقدامي ورطوبة الرمل والطين أحسها استنشقها كلما خلعت جوربي بعد سفر طويل وتعب طريق أتذكر الدرب المعشب الضيق الذي لا يسع بقرتين ونعجة الطريق التي كنت أقطعها كي أوصل له الطعام والماء ونقيع الزبيب والتي تصبح أجمل بعد سقوط المطر بيوم أو يومين فهي أبهى ما تكون في زمن الآن أريد مطراً بعد يوم وقبلاً لم تدنسه الحروب أريد طريقاً أرى فيه ندافاً يحمل صبي له قيثارة مقطنة وكنانة عيدان تحكي عن السهر والأحلام والشجن.